الودود

الاسم هو الودود ، لقول الله عز وجل في سورة البروج :

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج : ١٤] .

الله سبحانه وتعالى ودود . .

الودود على وزن فعول ، من صيغ مبالغة اسم الفاعل ، واسم الفاعل وادّ والمصدر هو الودُّ ، إذاً اسم الودود أصله من الودِّ ، فماذا تعني كلمة ود ؟

في المعاجم ؛ الود هو الحب ، ولماذا سُميَ الحب حباً ؟ قال : الحب مأخوذ من حَبَب الأسنان ، وحبب الأسنان صفاؤها وبياضها ونقاؤها ، وأسنان بيض ناصعة نظيفة نقية صافية ، فالذي يُحب الله عزَّ وجل من خصائصه الصفاء والنقاء والطُّهر والإخلاص .

والحُب مِن أحبَّ البعيرُ ؛ أي استناخ ، فالمُحب خاضع لمحبوبه ؛ فنأخذ من حبب الأسنان الصفاء والنقاء ، ونأخذ من أَحَبَّ البعيرُ أي أناخ أي خضع ، فإنَّ المُحب لمن يحب مطيع ، والمُحَب : مستعل ، والمُحِب خاضع ، والمحِب متواضع ، والمُحب مُتذلل ، والحُبُّ هو القرطُ ، والقرط ما تضعه النساء من الحلي في آذانهن ،

ومن شأن القرط أنه دائم التقلقل ، فالمُحِب يتقلّب في اليوم الواحد من عشرين إلى أربعين حالاً ، أما هذا الذي يلزم حالاً واحدة فهو منافق ؛ فالمحِب يتقلب من الخوف إلى الرجاء ، إلى السكينة إلى القلق إلى السرور إلى السعادة إلى الشعور بالخطر إلى القلق على محبوبه وما دام هناك حياة فله حركة ، أما الميّت فهو ساكن ، والذي مات قلبه تسكُن أحواله ، إذاً من معانيه : والمُنافق يمضي عليه أربعون عاماً ولا يتغير ، حالُه حال السكون ، لكنَّ الحياة فيها غليان ، وفيها تقلّب وفيها تغيّر من حال إلى حال . فالحُبُّ ؛ إذاً من معانيه : القرط ، ومن شأن القرط التقلقل والتحرك .

والحَبّ ؛ من الحبة التي تنبت شجرة ، فالحَب له ثمار يانعة مثلُ كلمة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين .

وهذا يعني أنك إذا أحببت الله ، فحُبُّكَ لله عز وجل بذرة ، تنبت شجرة وارفة الظِلال يانعة الثمار باسقة الأغصان ، خيرها دائم وظِلُّها ، كل هذه المعاني ، الصفاء والنقاء والخضوع والتذلل والتقلقل ، والنماء والخير العميم ، أي : كل هذه المعاني مستفادة من الحب ، لكن السؤال الدقيق هل الودّ هو الحب ؟ إذا قلنا : نعم يأتي سؤال وما الفرق بينهما ، وهل في اللغة اسمان مختلفان لمُسمىً واحد ؟ أم أنَّ الاختلاف في المبنى دليل اختلاف المعنى ؟ لا شك أن هناكَ فرقاً دقيقاً بين الحُب والود ، الحب ما استقر في القلب ، والود ما ظهر على السلوك ، فإن كنت تُحب فلاناً فمشاعر الميل نحوه هي الحب ، وابتسامتك في وجهه هي الود ، وإذا قدمت له هديةً فهي ود ، أو أعنته في مشكلة فهي ود ، أو عُدته إذا مرض فهي ود ، أو أعطيته هديةً في زواجه فهي ود ، أو نصحته فذلك ود ، فالمشاعر

الداخلية هي الحب ، والظواهر المادية هي الود فكل ودود محب ، وليسَ كلُّ مُحب ودوداً .

ويمكن لإنسان أن ينطوي على محبة ، ولا تظهر في سلوكه ، وكل ودود مودته أساسها مشاعر الحب في قلبه ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

كل هذا الكون تودَّدَ من الله إلى الإنسان ، فالكون والمجرات والسموات والأرض ،و الشمس والقمر ، والأمطار ، ومليون نوع من السمك ، ود ، وتسعمئة ألف نوع من الطيور ، ود ، والآلاف المؤلفة من أنواع الأزهار بِشتّى الأشكال والروائح ود ، وأنواع الفواكه ود ، وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت حيوية ود ، وهذه الزوجة التي خلقت تكريماً للرجل ، وهذا الزوج الذي خُلق تكريماً للمرأة ود ، وهذا الصوف الذي خلقه الله لنا ليقينا برد الشتاء ود ، وأيُّ شيءٍ سُخرَ لهذا الإنسان هو في الأصل ود ، والخلق ، والكون كله قد سخره الله لهذا الإنسان تسخير تعريف وتكريم ، فالوَدود هو الذي ينقل حبه إلى سلوك .

وهنا تطالعنا حقيقة ملموسة وهي أن الإنسان إذا أحب يميل ، فإذا ابتعد المحبوب أَلَمَّ بالمحبِّ ألم ، وهذا ألمُ الفِراق ، وما من إنسان يودّع محبوباً في المطار إلا ويبكي ، وما من أُم يفارقها ابنها إلا وتبكي ، فهل يصح هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل ؟!

إن علماء التوحيد قالوا : « **لا ، فالميل الذي من شأنه الضعف والتحسر والألم ، هذا لا يصدق على الله عز وجل ، ولكن الإنسان إذا**

أحب أحسن ، وإذا أحب خضع ، وإذا أحب تذلل » ، فالإنسان هكذا يفعل ، ولكن الله إذا أحب أحسن ورحم وأكرم ، فحُب الله عز وجل للمؤمنين ثابت في القرآن الكريم والدليل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

محبة الله عز وجل للمؤمن تعني حِفظه ، وتأييده ، ونصره ، وإكرامه ، وإنزال الرحمة على قلبه ، وإنزال السكينة ، وإغناءَه بكل ما يحتاج ، هذا هو الحب الإلهي أما حُب الإنسان لله عز وجل فيعني الميل ، فإذا جفاك ربك وأبعدك عن أنواره شعرت بألم لا يطاق .

فما حبنا سهل ولكن من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنا
فأيسر ما في الحب للصبّ قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

والإنسان إذا أحب الله مالَ إليه ، وخَلَدَ إلى ظِلِّهِ وإلى أنوارهِ وإلى تجلِّياتهِ وإلى سكينته ، وإلى الشعور بأن الله يحميه ويحفظه ، لكن حُب الله للإنسان يعني التأييد والنصر والحفظ ، وما شاكل ذلك ، أمّا الودّ فهو ما يتجسّد به الحب ، وهذه مقدمة أظنها ضرورية ومفيدة .

ونتجاوز المقدمة الآن إلى المعاني الدقيقة التفصيلية لمعنى الودود فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ .

الودود بوزن فَعول ، والفعول هنا بمعنى فاعل ، الوادّ : الذي يُكرم عباده ، والذي تُعَدُّ نِعَمُهُ مظهراً لحُبهِ لعباده ، فأنت مثلاً وعلى نحو بسيط إذا أحببت إنساناً ، ورأيت على ظهره نملة ، فإنك تنحّيها عنه ، وإذا أحببت إنساناً ورأيته يرتجف برداً فإنك تعطيه معطفك ،

وإذا أحببت إنساناً ، ورأيته بحاجة إلى شيءٍ ما فأنت تقدمه له ، فالود هو المظهر المادي للحب ، وربنا عز وجل هو الغفور الودود ، والوادّ .

كل هذا الكون مظهر لحبه ، وكل هذا الكون نوع من أنواع الود الإلهي ، إنه تودَّدَ إلينا بهذا الكون . ومن أجل ألاّ نبتعد عن هذا الموضوع كثيراً ، فهذه الدواب ألا تأكل طوال حياتها الشعير فقط ، فهو بالنسبة لها المقبلات وهو الحَلْوَيَات وهو الفواكه ، وليس لها غير الشعير والأعشاب ، أما الإنسان فيمكن أن يأكل إلى شهر كل يوم لوناً من الطعام ، ويمكن أن يتذوّق أنواعاً كثيرة من الفواكه ، ويمكن أن يستعمل الأزهار .

وإذا دخلنا إلى محل عطورات فشيء يأسِر ويدهش ، إذ منها ألوف الأنواع ، وكلها في الأصل من خلق الله عز وجل ، فهذا الياسمين وهذا البنفسج وهذا الورد ، وكل أنواع الروائح عطاءُ فيضٍ من خلق الله عز وجل .

خلَقَ هذه الروائح الطيبة ، وخلق هذه الحاسة الدقيقة التي تتذوق هذه الروائح الطيبة ، إذاً : خَلَقَ الشيء ، وخَلَقَ الجهاز المُستقبِل لَهُ ، وخَلَقَ هذه النِّعمة وخَلَقَ ما يستقبِلُهَا ، فهذا هو الود .

إذاً : هنا الودود يعني الوادّ ، والودود هو الذي يتودد إلى عباده بالنِّعم ، فإذا صحت الرؤية واستيقظَ القلب وتفتّحَت البصيرة ، رأيت أنَّ كل هذا الكون ما هو إلا تودد من الله إلى هذا الإنسان .

والآن أنت حينما تصلي وتصوم وتحج ، وحينما تغض من بصرك وتتصدق ، وتكون أميناً ، وتنصح المسلمين ، وتأمر بالمعروف وتنهى

عن المنكر ، وتنفق من مالك ، كل هذه الأفعال من اعتقادات إلى عبادات إلى معاملات إلى آداب ، هي في حقيقتها تودد إلى الله عز وجل ، هو تودد إلينا بالكون ، وأوجدنا بالخلق ، وسخر لنا هذا الكون ، وأعد لنا جنة عرضها السموات والأرض ، ونحن نتودد إليه بالإيمان به ، وبعبادته وطاعته ، وامتثال أمره ، وبترك ما نهى عنه ، وبالتخلّق بأخلاق نبيّه وبالبذل والعطاء ، ويكون الكون كله من قبل الله تودد إلى هذا الإنسان ، وكل أعمال الإنسان الصالحة هي في حقيقتها تودد إلى هذا الخالق العظيم . ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ أي الواد ؛ الذي يتودد إلى عباده بنعمه .

أسألك بالله عزيزي القارىء ، لو دعاك أحدهم إلى بيته ، ورأيت هذا البيت مُدفَّأً مسبقاً إكراماً لك ، والماء العذب الزلال المُعطّر بماء الزهر ، والأرائك ، والمشروبات اللذيذة المتقنة والطعام النفيس العطر ، والورود والهدايا ، ألا تذوب حُباً له ، ألا تشكره من أعماقك ، ثم ألا تقول له : والله يا أخي ، فضلت عليَّ ، والإنسان عبد الإحسان ، ولماذا تتحسس إذ أدى إنسان عنك الأجرة في سيارة ؟ طوال الطريق تبقى مستحيياً منه : وتقول يا أخي والله أكرمتني . . كلها من أجل ليرتين ، أو إن جاءك إنسان مهنئاً ومعه هدية ، تحار كيف تُكرمه ، ولماذا هذا الأحساس بفضل الإنسان ؟ وهذا الفضل الإلهي ، وأوّلُه أنه خلقك من لا شيء ، ألاّ يستحق منك كامل الاهتمام ، قال تعالى :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] .

هذا الفضل الإلهي دون إحساس ، ودون شكر ، هل قلت من

أعماق أعماقك : يا رب لك الحمد على أن خلقتني ؟ يا رب لك الحمد على أن عرّفتني ذاتك ، يا رب لك الحمد على أن أعنتني على طاعتك ، ثم يا رب لك الحمد على أن نوّرت قلبي بنورك ، ويا رب لك الحمد على أن ألهمتني أعمالاً صالحة ، فالله يقول لك : أنا سأسمع ؛ فقل وتكلّم لأسمعك ، ألا تقول : له سَمِعَ الله لمن حمده ، ألا تفعل هذا في الصلاة ألا تقول : سَمِعَ الله لمن حمده ، يعني يا عبدي أنا أسمعك فيما تقول ، ربنا لك الحمد والشُّكر ، وهناك من يقول : يا رب لك الحمد ملء السماوات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد ، هناك من يقول : يا رب لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك ، فما نَشَأَ بقلب الإنسان من شعور عميق بالحمد فلله عز وجل ، واذكروا دائماً أنّ كل هذا الكون تودد إليك .

مرةً سافرت إلى الحج ، فانتظرني أخ بالمطار ، وأخذني إلى بيته ، وخصص لي سائقاً وسيارة ، وأنزلني بأفخم فندق في مكة المكرمة وبالمدينة كذلك ، وعمل دعوتين أو ثلاثاً ، ودعا إليها عشرات الأشخاص ، وقدم معروفاً لا أنساه حتى الموت ، وكلما جاء إلى الشام أحار كيف أُكرمه ، وكيف أُقدم له الهدايا وأدعوه ، وهو إنسان استضافني عشرة أيام في موسم الحج .

فالنِّعم الإلهية على هذا الإنسان تترى لا حصر لها ، فعندما يدخل إلى الخلاء يُفرغ مثانته ، دون آلام ولا تمييل ، ولا حصر بالبول ، ولا صراخ ، ولا إسعاف إلى المشفى ، هذه نعمة عظيمة ، بدأت بذكرها لأن كثيراً من الناس غافلون عنها ، فهل من مدَّكر .

والقلب يعمل بانتظام ، والدسام يعمل بانتظام ، الأوردة والشرايين

والمعدة والأمعاء والكبد والكليتان ، وجهاز التنفس والأعصاب والإنسان يتمتع بنعمة عقله في رأسه ، وهذه من نِعم الله العظمى .

فكل هذا الكون تودُّد لهذا الإنسان ، ويجب أن يكون لسان حال المؤمن :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

فحياتي كلها ، ووقتي كله ، وطاقتي ومالي وإمكانياتي وعلمي وأولادي ، وبيتي في خدمة عبادك ، ومهنتي في خدمة عبادك ، ومالي امتثالاً لأمرك وإيماناً بك ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فأنت لم تكن شيئاً مذكوراً خلقك تنعم من أول لحظة بهديتين نفيستين :

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠] .

فأول هدية أنه حينما يولد الإنسان يلهمه الله عز وجل عملية بالغة التعقيد هي المص ، الآن ولد ، وخلال دقائق يضع شفتيه على حُلمة الثدي ، ويُحكم إغلاقَهما ، ويسحب الهواء ، فلولا أن الله يُلهمه هذا السلوك المُعقّد لما كُنا على وجه الأرض جميعاً .

والهدية الثانية ؛ هي الأم ، مَن هذا الكائن ؟ إنها الأم آية من آيات الله ؛ فوجودها من أجل ابنها ، وأعصابها وإدراكها ومشاعرها إنها تتفاعل مع ابنها تفاعلاً عجيباً ، وكأن هناك اتصالاً دائماً ، فإذا كانت عند الجيران ، تقول : لقد استيقظ ابني ، كيف عرفت ؟ لقد خرج الحليب من ثديها .

فالأم هدية ، والأب هدية ، وقد قال لي رجل : أنا خادم مخلص

بلا أجرة ، فما أريد في هذه الدنيا سوى طعامي وكسائي ، إنني أتعب من أجل أولادي ، فالأب خادم لأولاده ، يشقى ليسعدوا ، ويريد توفير بيت لأحد أبنائه مثلاً يسعى ليزوج آخر وهكذا . . فالأب هدية ، والزوجة هدية والأولاد هدية .

هذا الهواء ، وهذا الماء العذب الزلال ، فكل ليتر ماء تكلّف تحليته ما يقارب السبعين ليرة في بعض الدول ، فأنت تأخذ ماء عذباً زلالاً ، ففي كل ثانية تستهلك دمشق ستة عشر متراً مكعباً من مياه عين الفيجة ، ماءً مُصفّى عذباً فراتاً ، فالماء هدية من الله عز وجل .

وما تقول في أنواع الفواكه أيضاً ؟ وكذلك منحك الله عقلاً فأتقنت أعمالك وسعدت به ، فإتقان العمل كرامة ، ولك دخل ثابت ، فهذه حِرفة وكلّ له اختصاص ، فهذا طبيب وهذا مهندس ، فلذلك بحثنا هذا شامل شمولاً كبيراً جداً ، فكل الكون تودد من الله إليك ، ويجب أن تكون حياتك ومماتك ونُسُكُكَ وعبادتك ، ومالك لله ، قال أحدهم لشيخه : يا سيدي كم الزكاة ؟ فقال : يابني أعندكم أم عندنا ؟ قال : ما هذا السؤال ؟ مَن نحن ومَن أنتم ؟ قال : عندكم اثنان ونصف بالمئة ، أما عندنا ، أهل الحب فالعبد وماله لسيده . . فهل تتفهم هذا الكلام الذي تبدأ به صلاتك ؟

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ـ١٦٣] .

هذا هو المعنى الأول .

والمعنى الثاني ؛ أن يكون معنى كونه ودوداً أي : يخلُق المودة بين خلقه ، فمن ألقى حُب الأبناء في قلوب الأمهات ؟ ادخلْ مشفى

الأطفال فإنك ترى منظراً يُبكّي ، فالأم البدوية تبكي من أجل ابنها ، والسافرة ، والمثقفة ، والجاهلة ، والمؤمنة المحجبة كلهن يبكين ، إنه نمط واحد ، فكل هؤلاء الأمهات أودع الله في قلوبهن محبة تجاه أبنائِهن .

إذاً ، أحد معاني كلمة : « **ودود** » ؛ أنه يخلق الود بين عباده ، الأب أب ، والابن ابن ، والأخ أخ ، والزوجة زوجة كلهم يتواددون فيما بينهم قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] .

من خلق هذه المودة ؟ .

لي قريب كان مسافراً خارج القطر لأربع أو خمس سنوات وعنده في كل سنة إجازة شهر ، ويأتي كل سنة ليتزوج ، فلا يرى شيئاً مناسباً ، وتنتهي إجازته ، ثم يعود ويسافر ، وبعد أن أمضى سنوات عدة توتر توتراً شديداً ، ما هذه الظروف المعاكسة ؟ يقول : هذا البيت لأهله مشكلة ، ولهذه الفتاة مشكلة ، وهذه لا تُناسب ، وفي السنة الرابعة وفي آخر يوم بالإجازة وجد فتاة مناسبة ، فأحبَّ ألاّ يغادر إلاّ وقد عُقِدَ العقد ، إذ والدته تعرفت إليها عصراً ، فتواعدوا في اليوم التالي ظُهراً أن يأتي موظف المحكمة ليعقد القران ، إقلاع الطائرة الساعة الرابعة عصراً ، فحدثوني أن هذه الفتاة حينما خرجت بعد أن عُقد قرانها على هذا الشاب قد بكت بكاء شديداً! البارحة كان يوم الخطبة إنه يوم غريب ، مداه أربع وعشرون ساعة إلا أنه كان يوماً عجيباً ، وفي اليوم التالي كان الوداع فبكت هذه الخطيبة وبكت ،

ولما يمض على العقد إلاّ سويعات ، قال تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

أول معنى هو يُودكم ، بهذه الصحة بالنِّعم بالماء بالطعام بالشراب بالفواكه ، بالأسماك بالأطيار ، وأحياناً ترى أسماك زينة ، وليست للأكل ، ويكلف الحوض عشرة آلاف أو أكثر ، ومنها أسود ومنها أخضر ومنها خيوط فانظر هذه الأسماك ، لماذا خُلقت ؟ من أجلك ، ومن أجل أن تستمتع بمنظرها فقط وهذه العصافير الجميلة لماذا خُلِقت ؟ . . وهذه الأصوات الرائعة لماذا خُلِقت ؟ وهذه الروائح الزكية لماذا خلقت ؟ وهذه الورود ، اطلّعت على كتاب من ثمانية عشر مجلداً ، وهو كتاب كبير الحجم ، وفي كل صفحة صورة وردة ، ثمانية عشر جزءاً كل صفحة فيها صورة لنوع من أنواع الورود فلمن هذا ؟ أعطوا الدابة وردة فأكلتها ، فالذي أعطاها الوردة هو الغبي ، فهذه للشم وليست للأكل ، وليس الورد للدواب .

وفي الشتاء في غرفة الجلوس تُحب أن تستمتع بنباتات ضمن الغرف لا تحتاج في نموها إلى شمس ، وهي تنمو وتتنامى ، وهي جميلة إنها نباتات صالونات ، وهناك نباتات للمياه ، ونباتات للحقول .

ثلاثمئة نوع عنب ، التفاح أنواع منوّعة ، أخ من إخواننا كان في إفريقية ، أحضر لي موزتين ، من غينيا لِمَ هاتان ؟ قال : هاتان لأجل القلي ، ما هذا الكلام!! ، هذا للطبخ فقط ، وعلى حين أن الموز عندنا فاكهة للأكل ، وعندهم للطبخ ، ذقتها فوجدتها لا تؤكل نيئة ،

قليناها مثل البطاطا فهي طيبة شهية ، فكم نوعٍ خَلَقَ الله من الموز ؟ والقمح ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع .

أنواع البرتقال ، منها غزير ماء ، ومنها ناشف ، وحلو وحامض كبير وصغير ، وماوردي ، كلها مودة من الله عز وجل ، والنوع الواحد من الفاكهة أنواع منوعة ، هذه المودة .

فالمعنى الأول أنَّ الله يودك ، والمعنى الثاني يخلق المودة بين خلقه ، تدخل إلى سهرة في بيت أهلك فترى مودة ، منها مزاح ومعاونة ، والإنسان كائن اجتماعي ، فمن خلقه هذا الخلق ؟ ، يقول لك : سهرنا إلى الساعة الثالثة ، مسرورين بما بينهم من مودة ، وأحياناً بحسب السن وبحسب الحِرفة ، تجلس مع أطباء يتحدثون عشر ساعات عن حرفتهم مسرورين ، ومع المهندسين الشيء نفسه ، مع المدرسين ، يقول لك مزهواً الدرس الفلاني أتقنته ، والطلاب أعجبوا به ، اجلسْ مع التجار يقولون لك : هذه الصفقة ممتازة ، وهذه لم تربح وهذه أرباحنا فيها كانت خيالية كل مجتمع له حديث ممتع وله ترتيبات ، فهذه هي المودة ، خلق بين عباده الود .

المعنى الثالث بمعنى فعول : أي : إنّ الله سبحانه وتعالى يتوددُ عبادُه إليه ،و هو يتودد إلى عباده ، وهو يخلق المودة في قلوب عباده بعضهم لبعض ، فعباده يتوددون إليه ، فهذه ثلاثة معانٍ دقيقة للود ، من الله إلى عباده ، ومن العباد إلى ربهم ، وبين العباد فيما بينهم . لهذا روي عنه عليه الصلاة والسلام :

« **أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله : التودد للناس** » [الطبراني في مكارم الأخلاق عن أبي هريرة] .

وأعقلُ عمل ، وأحكمُ عمل ، وأذكى عمل يفعله المؤمن بعد أن يؤمن بالله أن يتودد إلى الناس ، حتى يسري الحق إليهم ، قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

بينما كان الرشيد يطوف في البيت الحرام إذ عرض له رجل فقال : يا أمير المؤمنين إني أريد أن أكلمك بكلام فيه غلظة فقال الرشيد : لا ولا نعمت عين قد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني فأمره أن تقول قولاً ليناً . [البداية والنهاية ١٠/٢١٧] .

الإمام الرازي كان من كبار العلماء ، إنه الفخر الرازي ، وله هيبة كبيرة ، وله موكب فخم ، وقد كان في درسٍ من دروسه ، فخرج من المسجد ، ثياب أنيقة ومعه تلاميذه ، ووجهه منير متألق مهيوب ، فرآه يهودي ، فقير مسحوق ، جوع على مرض على حرمان على فقر على احتقار الناس له ، فنظر هذا الرجل إليه وقال له : يا هذا يقول نبيكم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[1] ، فأي سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها ؟ فقال له الإمام الرازي : يا هذا ما أنا فيه إذا قيس إلى ما أعدَّ الله للمؤمن فأنا في سجن ، وما أنت فيه إذا قيس بما أعد الله للعصاة من عذاب فأنت في جنة ، حقاً إنه جواب مفحم ، أي : ما أنا فيه من هذا العِزّ إذا قيس إلى ما وعدني الله به من جنة عرضها السموات والأرض فأنا في سجن .

---

(١) الحديث رواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وهكذا قال عليه الصلاة والسلام ، انتقال المؤمن من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ، فالجنين يعيش في سبعمئة وخمسين سنتمتراً مكعباً بالضبط ، والرحم تجويفه قبل الحمل زهاء سنتمترين مكعبين ، وكأنه لا يوجد تجويف ، بل عبارة عن عضلة على شكل إجاصة ، وحجمه في أثناء الحمل أو بأعلى نسبة سبعمئة وخمسين سنتمتراً مكعباً ، والإنسان إذا ولد ثم كبر وتجوّل يقول لك : والله كنا في أمريكا واستغرق سفرنا عشر ساعات طيراناً ، كان محبوساً في سبعمئة وخمسين سنتمتراً ، ثم طار في الأجواء ، فكيف ينتقل الإنسان من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا ، قالوا : المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين : ﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٥-٥٩] .

هذه هي البطولة ، أن يأتي هذا اليوم وأنت في منجاة ، وأنت من أهل الجنة ، نسعى كلنا ونجتهد ، ونحضر دروس علم ، ونغضّ بصرنا ونخاف من الله ، ونضبط ألسنتنا ، ونضبط جوارحنا ، ونقرأ القرآن ويخدم بعضنا بعضاً ، حتى يأتي هذا اليوم الذي نسعد فيه .

فحظ العبد من هذا الاسم أن يتودد إلى العباد ، فهنا طفل تودد إليه ، وهناك كبير تودد إليه ، وأكبر منك عامله بالاحترام ، وأصغر مِنكَ فبالرحمة ، وبمستواك فبالإحسان ، هذا هو المؤمن ، يجعل من إحسانه طريقاً إلى الدعوة إلى الله عز وجل .

وبعد ، فهناك سؤال لا بد منه : هل الود هو الرحمة ؟ فهمنا أن

الود هو الحب والحب مشاعر داخلية تنتقل إلى سلوك مادي ، هذا هو الود ، الود والمحبة وجهان لشيء واحد ، مثل الإخلاص والعبادة ، من الداخل إخلاص ومن الظاهر طاعة ، فالشعور الداخلي حب ، والسلوك العملي مودة .

وهل هناك فرق بين المودة والرحمة ؟ ، إنه لفرق كبير فالرحمة متعلّقة بمخلوق ضعيف ، بمخلوق يستجير ، وبإنسان مريض وبإنسان مُعذب ، بإنسان فقير ، فأنت ترحمه! أمّا الود فليس للضعيف ، فأنت حين تعطي إنساناً ما شيئاً من الأشياء دون أن يسألك ، فابتداءً هذا هو التودد وأحياناً يطرق بابك إنسان ، فيتوسل إليك ويقول : أقرضني أرجوك أسعفني ، اقبلني عندك ضيفاً ، أو أوصلني إلى هذا المكان ، أو ارحمني خذني إلى الطبيب الفلاني ، فهذا إنسان مستجير ، وأنت إذا فعلت ما يناسب فما اسمك ؟ اسمك رحيم ، وذاك مخلوق ضعيف استجار بك ، أما إذا زُرتَ صديقاً في أوج صحته وقوته وشبابه ، ومكانته ، وأعطيته هدية بمناسبة زواجه ، وهو لم يستجر بك ، فالود ابتداء ، وأمّا الرحمة فيسبِقُها طلب والود لغير الضعيف ، والفقير والمستجير ، هناك فرق بين الود والرحمة ، فربنا عز وجل حينما خلقنا كان ودوداً ، ونحن لم نكن موجودين ، فهو خلقنا وأكرمنا وأنعم علينا ، مودته لنا ابتداء وهي أرقى بكثير .

حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد وبين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رآني قال لي : عباس! قلت : لبيك يا أمير المؤمنين! قال : خذ هذا إليك فاستوثق منه واحتفظ به وبكر به إلي في غد واحترز عليه كل الاحتراز قال العباس فدعوت جماعة فحملوه ولم يقدر أن يتحرك فقلت في

نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري ، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو ، فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله وأهلها خيراً فمن أنت من أهلها ، قال : وعمن تسأل ؟ فلت : أتعرف فلاناً ، قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقع لي معه قضية! فقال : ما كنت بالذي أعرفك خبره حتى تعرفني قضيتك معه ، فقال : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه وهربت في جملة القوم فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي ، فما زلت أعدوا أمامهم حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثني أغاثك الله! قال : لا بأس عليك أدخل الدار فدخلت فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون : هو والله عندك ، فقال : دونكم الدار ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامرأته فيها فقالوا : هو ههنا فصاحت بهم المرأة ونهرهم فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف ، فقالت المرأة : لا بأس عليك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل ، فقال : لا تخف قد صرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى ، فقلت له : جزاك الله خيراً فما زال يعاشرني أحسن معاشرة وأجملها وأفرد لي مكانا في داره ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر عن تفقد أحوالي فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد

عيش وأهنئه إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني ؟ فلعلي أقف منهم على خبر فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه ، فخرجت وطلبت غلماني ، فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته الخبر ، وهو مع هذا كله لا يعرفني ولا يسألني ، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية ، فقال : علام تعزم ؟ فقلت : عزمت على التوجه إلى بغداد ، فقال : القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج وها أنا قد أعلمتك ، فقلت له : إنك تفضلت علي هذه المدة ولك علي عهد الله أني لا أنسى لك هذا الفضل ، ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا غلاماً له أسود ، وقال له : أسرج الفرس الفلاني ثم جهز آلة السفر ، فقلت في نفسي : أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي : يا فلان! قم فإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها فقلت في نفسي : كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكري به مركوباً ؟ ثم قمت فإذا هو وامرأته يحملان بقجة من أفخر الملابس وخفين جديدين وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقته فشدهما في وسطي ثم قدم بغلام فحمل عليه صندوقين وفوقها فرش ودفع إلي نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم وقدم إلي الفرس الذي كان جهزه وقال : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلي من التقصير في أمري ، وركب معي يشيعني ، وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته وأشغلت مع أمير المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره فلهذا أنا أسأل عنه فلما سمع الرجل الحديث ،

قال : لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك فقلت وكيف ذلك ، قال : أنا ذلك الرجل وإنما الضر الذي أنا فيه غير عليك ما كنت تعرفه ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له فما الذي أصارك إلى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إلي وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بي إلي أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطبي لديه جسيم وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية ، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري ، وهو نازل عند فلان فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد ، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة ، وقمت لي بوفاء عهدك قال العباس قلت : يصنع الله خيراً ، ثم أحضر حداداً في الليل فك قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم سير من أحضر إليه غلامه فلما رآه جعل يبكي ويوصيه فاستدعى العباس نائبه ، وقال : علي بالفرس الفلاني والفرس الفلاني والبغل الفلاني والبغلة الفلانية حتى عدد عشرة ثم عشرة من الصناديق ومن الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا ، قال ذلك الرجل وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار فقلت له ذنبي عند أمير المؤمنين عظيم وخطبي جسيم وإن أنت احتججت بأني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كل من على بابه فأرد وأقتل فقال لي : انج

بنفسك ودعني أدبر أمري فقلت : والله ما أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الامر على ما يقول فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته وإن أنا قتلت فقد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه ، وأنشدك الله! أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد في إخراجه من بغداد ، قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أثق به ، وتفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفنا قال العباس فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا وأرسل المأمون في طلبي ويقولون يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك ، وقم ، قال فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه وهو ينتظرنا فقال أين الرجل ؟ فسكت فقال ويحك أين الرجل ؟ فقلت يا أمير المؤمنين اسمع مني! فقال لله علي عهد لئن ذكرت إنه هرب لأضربن عنقك! فقلت : لا والله يا أمير المؤمنين! اسمع حديثي وحديثه ، ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري ، قال : قل! فقلت يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي ، وقلت : أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين إما ما فعله معي إما أن يصفح عني فأكون قد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت وها كفني يا أمير المؤمنين ، فلما سمع المأمون الحديث قال : ويلك! لا جزاك الله عن نفسك خيراً أنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لا غير هلا عرفتي خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ههنا قد حلف أن يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر فقال المأمون

وهذه منه أعظم من الاولى اذهب الآن إليه فطيب نفسه وسكن روعه ، وائتني به حتى أتولى مكأفاته قال العباس فأتيت إليه وقلت له ليزل خوفك ، إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء غيرُه ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجئنا فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدثه حتى الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفي فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها وعشرة أبغال بآلاتها وعشر آلاف دينار وعشرة مماليك بدوابهم وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به وإطلاق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق فصارت كتبه تصل إلى المأمون وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابة يقول لي يا عباس هذا كتاب صديقك والله تعالى أعلم .

استرعى نظري في القصة ، أنه أكرَمَكَ وهو لا يعرِفُك ، هذه هي المودة ، أما أنت فإكرامك له الآن ردُّ جميل لا أكثر ، أنت مدين له ولو قدمت نفسك مكانه لما فعلت إلا القليل ، هو أعطاك الحياة ، فقد كنت مقتولاً ، وأدخلك إلى البيت ودافع عنك وأعطاك كل شيء أربعة أشهر واعتذر إليك وهو لا يعرفك ، الأولى أبلغ من الثانية ، قال له : مهما فعلت فلن تكافئه وأنا سأكافئه ، البر لا يبلى ، والذنب لا يُنسى ، والديّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

لكن الإنسان إذا ما أحس فضل الله عز وجل ، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ وفي سورة أخرى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ وقال تعالى :

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس : ١٧-٢٣] .

ماذا ينتظر الإنسان وماذا يفعل ؟ وما الذي منعه أن يتوب إلى الله ؟ وما الذي يمنعه أن يصلي ؟ وأن يذكر الله عز وجل ، وأن يفعل الخير مع الناس جميعاً .

لا يعرف طعم الإحسان إلا المُحسن ، وسيدنا عمر كان يمشي ذات ليلة في المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف ، فلما رأى قافلة في أطراف المدينة وقد نام أصحابها ، قال لصاحبه : تعال نحرسها لوجه الله إنهم تُجّار ومعهم متاع وبضاعة فبكى طفل صغير ، فقال لأمه أرضعيه سكت الطفل ، ثم بكى ، فقام إليها وقال : أرضعيه ، أسكتته ثم بكى ، فغضب فقام إليها وقال : يا أَمَةَ السوء أرضعيه ، قالت : يا هذا ما شأنك بنا ؟ إنني أفطمه وعمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام ، « العطاء يعني التعويض العائلي في زماننا » ، يقول سيدنا عمر وقد ندّت منه صيحة ، وضرب رأسه وقال : ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين ، فكل هذا التعذيب مني وأنا السبب ، لأن العطاء بعد الفطام ، وهي الآن تفطمه وتجيعه ، فأصدر أمراً فورياً أن العطاء يبدأ ساعة الولادة ، ثم صلى الصبح وما سمع أصحابه من قراءته شيئاً لشدة بكائه ، وكان يقول : يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّىء نفسي ، أم رددتها فأعزيها ؟

المُحسن أسعد الناس ، وقد قرأت كلمة في مجلة ، وهي أربع كلمات فأحياناً تنتهي المقالة في المجلة ، ويبقى في صفحة منها فراغ فيزينونها بكلمة مثل هذه « **إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين** » .

عزيزي القارىء اذكر دائماً : الله عز وجل مُحسن ، ويحبك أن تكون محسناً .

* * *